وادي الظلال

الجزء الأول

الفصل الثالث

وأسرعنا إلى المنزل لإعداد المائدة قبل أذان المغرب وجلسنا ننتظـر عـودة الغائبين، لكن الليل غسا واستبد الجوع بنا ولم يقدم أحد فشعرت بالقلق ولم أجـد بدا من السماح لإخوتي بالعشاء قبل أن يأووا إلى الفراش، ولكن الوسن كـان قـد هرب من أجفانهم لسماع طلقات نارية قريبة حتى كأن المنزل هدفها. وربع خالـد ورجاء فرحت أهدئ روعهما بقصة، وما كدت أشرع بها حتى سمعنا طرقا علـى الباب. وهرعت لاستقبال والدي وأخي عبد الرحمن وأختي سعاد، لكـن القـادمين كانوا أولاد الجيران الذين يسكنون الطابق العلوي من البناء المجاور. كـان يبـدو عليهم الفزع، وقالت أختهم التي بمثل سني:

- الرصاص اخترق نافذة غرفتنا واستقر في الحائط المقابل، فخشيت علينـا والدتي الخطر. فهل نبيت عندكم الليلة؟

- أهلا وسهلا. سنتسلى كثيرا فنحن أيضا خائفون.

وهدأت مخاوفنا، وسرى جو من الحبور بالرفقة غير المتوقعة. وفي لحظـة جُمعت الأسرة وانزلق تحت الأغطية عشرة أطفال. وعدت إلى قصتي وقد أسندت رأسي إلى راحة يدي وعطفت الوسادة لأرتكز بمرفقي عليها فأرى الجميع. ورنّت الضحكات ونسينا كل شيء عن العالم الخارجي، بل لعلنا تمنينا مزيدا من مثل هذه الأزمات لتتاح لنا التسلية البهيجة معا!

ولم ننتبه إلى قلقلة المفتاح بالباب، ولا إلى خفق نعال فـي الـدهليز حتـى انتصب والدي وسط الغرفة بقامته المعتدلة النحيلة. كان حيويا مرحا، اشتهب فوداه وشارباه الكبيران اللذان طالما ضايقاني عند التقبيل، وبدت علـى وجهـه الملـيح القسمات أمارات الطيبة والاستسلام للأقدار فأبقت على نـضارته، فـلا أثـر إلاّ

لتجعيدات خفيفة حول فمه المكتنز وعينيه الغزلتين الصغيرتين، أثر نفس راضـية ووجه دائم البشاشة. وكان يحمل سعاد الربلة الشقراء، وقـد انعطفـت خـصلات شعرها في حلقات تتوج رأسها الصغير وتحيط بوجهها الكمثري، وارتـسم علـى عينيها اللوزيتين العسليتين النجلاوين وشفتيها الرقيقتين القرمزيتين تعبير جـدي، وهي تحمل بيدها لعبة صغيرة. ووقف عبد الرحمن إلى جانب والدي، كـان فـي مقتبل شبابه معتدل القامة، عريض المنكبين، ممتلئ الجسم، تبدو عليه رزانة قبـل أوانها، كمن لا يعرف من الحياة إلاّ ناحيتها الجدية. وكل ما في قسمات وجهه من العينين العسليتين الواسعتين المجهدتين وراء نظارتين مستديرتين، إلى قوسي الشفة العليا المدببة، يدل على استقامة مفرطة في تحريها الواجب، وطبيعة لا تحيد قيـد شعرة عما رسمه العرف والقانون، ولا تطوف بها أدنى خالجة لثورة أو تمرد.

- أهلا بضيوفنا الصغار. حسنا فعلتم. وأرجو أن لا تكونوا قد ذعرتم. قـال والدي مرحبا بنبرته الأنيسة وقد اطمأنت نفسه إلى أننا جميعا بخير.

- بابا! أخي عبد الرحمن، سعاد! هتفت رجاء بترنيمة فرحة وقد كفت عـن معابثة بنت الجيران وشد شعرها.

- بابا! كيف هي ماما؟ هتفت حناجر الجميع، ونحن نقفز من أسرتنا لتقبيـل يده.

- بشراكم يا أولاد. لقد جاءتكم بلعبة جديدة، وهي بخير والحمد لله.

- صبي أم بنت؟ استفسر خالد

- صبي وسميناه هشام، أردف عبد الرحمن بوقار.

وضمنا والدي إليه:

- رضي الله عنكم! اتبعوني جميعا إلى المائدة لنحتفل بميلاد بوبو العائلة.

وفي لحظات حفلت المائدة بالصحون، وبأطباق كبيرة من الحلـوى الـشرقية المختلفة، وصينية عامرة بأصناف الفاكهة المتنوعة، وجلس الأطفال ليأكلوا مـرة ثانية!

كان يبدو على وجه عبد الرحمن وجوم خفيف لحظته ونحن جالسون على مائدة الطعام، كانت من عاداتي مراقبة الوجوه واستشفافها على المائدة أكثر من الاحتفال بالطعام. وتلكأت وقطعة الحلوى في يدي، فغيظ والدي وقال:

- ألا تستسيغينها؟

- لا! أنت تعلم أن نفسي تمج الحلويات.

- إني لأعجب ماذا تحبين! إنك لتعافين نصف أصناف المأكولات على أقلّ تقدير. لا ترفضي نعم الله يا بنية. من يدر أن لن تمر بكم أوقات عصيبة؟

ومرت على وجهه سحابة ما لبثت أن انقشعت وعاد إلى ضحكه وتدليله سعاد وزقها وملاطفة الضيوف الصغار.

بعد أن غادر آخر طفل من الغرفة، ورحت أخلي المائدة من الصحاف، بقي والدي مع أخي عبد الرحمن يتحادثان بصوت خفيض.

قال والدي متجهما:

- إن أحوال البلاد مضطربة، والنار ما زالت تحت الرماد.

فتمتم عبد الرحمن:

- أما كان من الأفضل، يا بابا، لو بقينا في سورية؟

فتنهد والدي:

- "وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت".

- إن السوق راكدة ركود الموت، والأسعار في انهيار مستمر، رد عبد الرحمن بلهجة العارف بالأمور.

- لا حول ولا قوة إلاّ بالله. منذ وصولنا وأنا أبيع لنأكل فقط، وأخشى أن يأتي يوم أعجز فيه عن دفع أجور صناع المشغل، انفعل والدي قليلا ثم سرعان ما أردف باستسلام:

- لنترك الأمر لله. "الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر".

- الناس لا يقبلون على شراء الكتان المرسم الذي نصنعه، ومعظمهم يفضل شراء الأقمشة المستوردة التي تغص بها محلات اليهود، فهي أجود وأرخص ثمنا.

كما أن مفارش الأسرة وأغطية الطاولات المنقوشة صارت ترفا لا يقـدر عليـه الكثيرون في هذه الضائقة.

- إن الأقمشة المستوردة لا تضاهي أقمشتنا جمالا! أتى صوت والدي الحـالم وهو يغرق في ذكرياته غريبا على موضوع الحديث المتوتر:

- قبل سفر برلك كانت أحوالنا بألف خير. كانت مشاغل البروكار والأغباني والكتان المرسم التي تملكها أسرتنا تزود محلاتنا التجارية الأربعة الكبيـرة فـي سوق الحميدية في دمشق، كما تزود باقي السوق والمـدن الـسورية الأخـرى، ببضاعتنا الجميلة المتميزة. وكنا نصدر إلى لبنان وفلسطين. كانت بلادنا هذه بلدا واحدا آنذاك، وكنا ننتقل بتجارتنا بين دمشق وحلب وبيروت والقدس دون عائق.

- صحيح أن الأقمشة المستوردة أبسط بألوانها وزخارفها، ولكن هكـذا هـي الموضة في هذه الأيام، كما أنها ثابتة الألوان وأمتن وأرخص. إنها عملية أكثـر من بضاعتنا..

قاطع عبد الرحمن استرسال والدي في ذكرياته بذكر حقـائق جافـة دون أن يبدي تعاطفا مع ماض يبدو له بعيدا جدا عنه:

- إن صناعتهم آلية، وهم يغرقوننا بها، ويجب أن نفكر بطريقة مختلفة حتـى نصمد في هذه المنافسة وننجو. لا فائدة من التنقل! لقد هربنا من الفرنـسيين فـي سورية لنجد حالا أسوأ هنا تحت حكم الإنجليز، كالمستجير من الرمضاء بالنار.

- خيب الله مسعى الشريف حسين!

تابع والدي ما انقطع من حديثه، دون أن يبدو عليه أنه تأثر بحمـاس ابنـه الشاب

- كل البلاء يأتينا من هؤلاء البدو الجشعين، حقا الأعراب أشد كفرا ونفاقـا. لقد تحالف مع الإنجليز ضد الدولة العثمانية المسلمة، فانظر إلى مـا آلـت إليـه الأمور: احتلّ الإنجليز والكفار بلادنا، وجلبوا معهم المصائب واليهود. إن طمعـه في السلطة أعمى بصيرته..

كان عبد الرحمن يزداد توترا كلما استرسلا في الحديث، كأنما فـي نفـسه حسرة وملامة، لكنه أغلق عليهما في مكان ما في أعماق قلبه، ولم يسمح لهما أن

تخرجا إلى العلاء أبدا، بل لم يناج بهما حتى نفسه. وأقصى ما ظهر من غـضبه كانت محاولته أن يبدو في حديثه أكثر دراية بما يجري من أمور، وأقـدر علـى تصريفها من والدي الذي قلما ألقى بالا لنصائحه أو خططه. لم يكن عبد الـرحمن يدري حتى من يلوم: ظروفه أم والدي أم نفسه. لقد هجر كليته التي أحبها وتفـوق فيها، وودع أحلامه في أن يصبح طبيبا ذا شأن ذات يوم، ليساعد والدي في إدارة مشغله ومحله التجاري، يدفعه إحساس صارم بالواجب. كأنما تضحيته هـي مـن طبيعة الأمور وعليه أن يؤديها دون أدنى تذمر. وأخذ أفق مستقبله يـنكمش أمـام عينيه يوما بعد يوم حتى انتهى به الأمر أن يعمل محاسـبا بـأجر ضـئيل عنـد الآخرين عندما انهار عمل والدي.

عندما عدت من المطبخ لأرتّب الغرفة سمعت عبد الرحمن يقول:

- والكمبيالات التي استحقت الدفع؟

- سيصبر علينا التجار، فهم أدرى بالحال. إني استثمرت رأس مالي كله في تأسيس عملي هنا وفتح هذا المنزل الذي تقيم فيه الأسـرة. كـل بداية صعبة. هكذا كان الأمر عندما أقمنا في القدس في المرة الـسابقة، ولكن الأحوال تفرج مع الزمن، وسنفي حقوقهم بإذن الله.

- لكن الناس في ضائقة وربما لا يصبرون علينا.

- هذا البلد كان دائما كريما معنا، ولنا فيه أهل وإخوان يا بني. لقد كان لجدك رحمه الله، كما تعلم، تجارة هنا أيضا، وله أصحاب كثيرون. وعندما أتيـت فـي المرة الماضية جددت الصلات مع أبنائهم، وكم أسفوا عندما غادرنا عائدين إلـى الشام، وهم الذين أقنعوني بالعودة. صمت والدي وأخذ يمـسد شـاربيه بـسبابته والإبهام وهو ينظر أمامه ساهما، ثم تابع دون أن يلتفت إلى عبد الرحمن وكأنـه يحادث نفسه:

- سأعيد بعض البضائع إلى أصحابها، وأستدين لأفي من تـأخرت ديـونهم، حتى يفرجها الله.

وكسا وجه عبد الرحمن الوجوم، ولم يقل شيئا.

هذا ما بلغ سمعي قبل أن يستدعيني إخوتي إلى غرفة النوم، وأجد الـصغار بين متشقلب وقافز فوق الأسرة والمقاعد ومن جعل نفسه حصانا تركبه سعاد وتشد رقبته بشريطتها، ومن يغني ومن يرقص ومن يتصايح ويتراكض.

- كفى! ما هذا الضجيج؟ هذه ألعاب تضر بعد الطعام. خالد ألم تحذرك ماما من التشقلب بعد الأكل؟

- وماذا نلعب إذن؟ سأل خالد محتجا.

- تعالوا نلعب "إزاي عروستي".

- هذه لعبة مملة. صاح أديب ضـاحكا وهـو يرمـي بنفـسه علـى خالـد فيتصارعان، بينما هتفت الفتيات:

- نعم، نعم، لنلعب "إزاي عروستي".

- ولكن أين رجاء؟ إنّي لا أراها.

وهتفت بها، لكنها لم تجب النداء، فانفلتّ من الغرفة لأبحث عنها، ورأيتها في الظلام قد انتبذت ناحية في غرفة الاستقبال تنتحب في صمت.

- رجاء ما بك؟ هل أساء أحد اليك؟

وجلست قربها أكفكف دمعها وأداعب شعرها فلجت بالاستعبار، وهي تلـفّ ذراعيها بشدة حول عنقي. ودهشت عندما علمت ما داهم قلبها الصغير من قلق:

- هل ستحبين هشام أكثر مني؟.

فراضيتها بلهجة تدليل:

- أبدا! إن قلبي يتسع لحبكم جميعا، ولكن ستبقين أنت الأثيرة عنـدي، ولـن يحتلّ مكانك أحد. فمن يصغي إلى القصص ويفهمها ويحفظها كما تفعلين؟

فأشرق وجهها الصغير، وراحت تقبلني بصمت خلال دموعهـا، ثـم قالـت بصوت ما زال يحمل أثر البكاء:

- لم أنس شيئا من قصة الناقوس العظيم. لقد أجلستني المعلمة فـي روضـة الأطفال على كرسيها، وقصصتها على رفيقاتي. وحين انتهيت صفقت لـي هـي والتلميذات وقالت "برافو رجاء".

وابتسمت للهجة المؤكدة التي تثبت فيها أهليتها للبقاء على عرشها في نفسي. فهي تريد الحماية والحب، وشيطنتها تورطها دائما في هذا المجتمع الصغير الذي يعج بمن يقسو عليها من كبير وصغير. فتنال عقابها ضربا لحذاء جديد أضـاعته في الملعب، أو معطف مزقته ولم يكتمل على خياطته شهر، ولأكمام ثوب ثمـين لوالدتي، لم تضم أجزاؤه بعد، قصتها وخاطتها ثوبا للعبتها، ولدواة حبر قلبتها على السجادة، ولقلم لأديب استخدمته دون علمه وأفسدته، ولغير هذا كثير مما تقع فيـه كل يوم من مآزق يجعلها هدفا لسخط الجميع عداي. فقد كنت أكره أساليب العنف، وما زلت، مهما كان دافعها، وأعجب بذكاء رجاء وسرعة بديهتها ونشاطها الجم، وأغفر لها ذنوبها الصغيرة التافهة وأندفع لحمايتهـا أذب عنهـا الأذى ظالمـة أو مظلومة.

وارتفع صوت أديب من الغرفة المجاورة:

- سلمى أين أنت؟ نحن ننتظرك.

- ها أنا قادمة. والآن تعالي أقبلك يا صغيرتي. ماذا كنت تدعين اليوم وأنـت تدورين بالأعمدة؟ فأنا سمعتك تذكرين اسمي.

- كنت أدعو الله أن تحبيني.

- سأحبك دائما يا أخية. والآن هيا اذهبي واغسلي وجهك.

وجلست في الظلام أنتظر عودة رجاء وأنا أبتسم لصورة دموعها ومخاوفهـا وقلبي مفعم بالحنان، قطرات من ينبوع ثر من محبة لم ينضب لهـا معـين. وإذ تعاودني هذه الذكرى الآن لا أتمالك نفسي من أن تغرورق عيناي بالدموع.

* * *